توحيد الحجاز

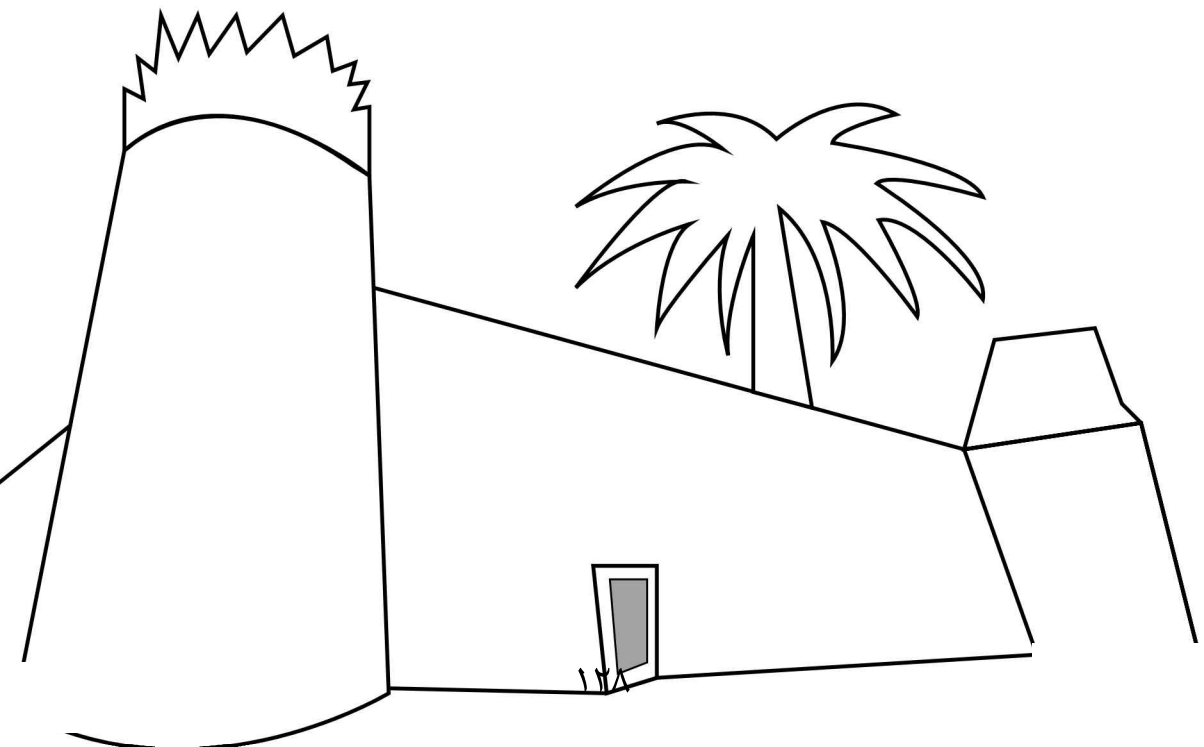

سبق الحديث عن أوضاع منطقة الحجاز من خروجها عن حكم الدولة السعودية الأولى إلى أن تَولَّى شرافتها الحسين بن علي سنة ١٣٢٦هـ[١]، كما سبق الحديث عن الحملة التي قام بها ذلك الشريف على نجد بعد تَولِّيه بعامين[٢]، وعن العلاقات المتذبذبة بينه وبين الملك عبدالعزيز خلال الحرب العالمية الأولى وكيف ازداد التَّوتُّر بينهما حول واحتي تُرَبة والخُرْمة اللتين كانت غالبية سكانهما مُتحمِّسين للدعوة التي قام على أساسها الحكم السعودي. وكان في طليعة هؤلاء المتحمِّسين أمير الخُرْمة خالد بن لُؤَي، الذي حدث خلاف بينه وبين الأمير عبدالله بن الحسين مما أَدَّى إلى خروجه عن طاعة ملك الحجاز[٣]. وقد أرسل هذا الملك عدة سرايا لإخضاعه، لكنه وأتباعه ومن انضم إليهم من الإخوان التابعين للملك عبدالعزيز رَسميًّا تمكَّنوا من صَدِّ تلك السرايا[٤].

١-معركة تُربة:

وفي عام ١٣٣٧هـ كان الملك حسين بن علي في نشوة انتصاره على العثمانيين في المدينة المنوَّرة، وحصوله على أسلحة حديثة نتيجة استسلامها له، فأصبح يعتقد أن في إمكانه أن يستعيد هيبته في تُرَبة والخُرْمة بالقوة. وعقدت الحكومة البريطانية مؤتمرًا لمسؤوليها عن جزيرة العرب، فقَرَّرت تخويل الملك الحسين ليحتلَّ الواحتين المذكورتين، رغم تحذير فيلبي الذي كان يرى أن ذلك الملك سيعجز عن مقاومة أتباع الملك عبدالعزيز[٥]. ولَعلَّ من أهدافها إشغال الحسين بجهة أخرى تلهيه عن بلاد الشام وفلسطين. وسارع هذا الملك، بعد

---

(١) انظر ص ص ٩ - ١٤ من هذا الجزء من الكتاب.

(٢) انظر ص ص ١٢٤ - ١٢٩ من هذا الجزء من الكتاب.

(٣) انظر ص ص ١٥٤ - ١٦٠ من هذا الجزء من الكتاب.

(٤) انظر ص ص ١٥٩ - ١٦٠ من هذا الجزء من الكتاب.

(٥) وهيم، ص ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

أن نال تأييد تلك الدولة معنويًّا، إلى تجهيز ابنه عبدالله بجيش نظامي مُزوَّد بمدافع وأسلحة حديثة؛ إضافة إلى آلاف من رجال القبائل[1]، واجتمع هذا الجيش في عُشَيْرة انتظارًا لتلقِّي الأوامر بالهجوم. فاتَّصل الملك عبدالعزيز ببريطانيا مُحذِّرًا من مَغبَّة ما ينوي الملك حسين القيام به، وطلبت تلك الدولة من الحسين التَّريُّث والتفاهم مع الملك عبدالعزيز، لكنه صَمَّم على تنفيذ ما أراد[2]. وتقدَّم جيشه صوب تُرَبة، فدخلها دون مقاومة تذكر، وعامل أهلها بقسوة.

وكان الملك عبدالعزيز على علم بتَحرُّك الأمير عبدالله بن الحسين منذ تَوجُّهه صوب تُرَبة. وقد أرسل إلى هناك طليعة من الإخوان أغلبهم بقيادة سلطان بن بجاد، الذي كان مركزه في هجرة الغُطْغُط، ومعها فئات من قحطان بقيادة حمود بن عمر، وأتباع خالد بن لُؤَي[3]. ثم سار هو بجيش كبير. ولما عام باحتلال الأمير عبدالله بن الحسين لتُرَبة بعث إليه وفدًا يعرض عليه حَلَّ مشكلة الحدود بالطرق السلمية، لكن عبدالله لم يستجب لذلك العرض، معتبرًا أن تلك البلدة تابعة للحجاز، فلا مفاوضة حولها. ووصل الوفد إلى معسكر الإخوان بين تُرَبة والخُرَمة، فأخبرهم بتَعنُّته، وقسوته، واستهزائه بهم، وتهديده لنجد. فالتهبوا حماسة، وصَمَّموا على مهاجمته، وبعثوا إليه من أنذره بأنهم سيهجمون عليه مع طلوع الفجر، اعتقادًا منهم أن ذلك الإنذار سيجعله مُرتبكًا، ويحرمه من الراحة والاستعداد[4]. مما إن بدا فجر الخامس والعشرين من شعبان، سنة

---

(١) تختلف الروايات في عدد ذلك الجيش، لكن أقلّها تقديرًا لعدده تجعله أكثر من عشرة آلاف.

(٢) وهيم، ص٣١٠؛ ابن هذلول، ص١١٧. ويذكر وهيم أن عبدالله بن الحسين كان يميل إلى رأي بريطانيا، لكنه لم يجد بُدًّا من إطاعة أبيه.

(٣) تذكر مصادر أن عددهم كان بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف. لكن الذكير (نسخة خاصة، ص١٤٧) يقول: إنهم لا يتجاوزون الألفين.

(٤) العبيِّد، ص١١٣.

١٣٣٧هـ، حتى انقضُّوا على معسكره من جهات مختلفة بخطة محكمة[١]. فأبادوا أغلب جيشه، ولم ينج إلا من حالفه الحظ بالهروب[٢]. واستولى الإخوان على ما كان مع عبدالله بن الحسين من أسلحة ومؤن وأموال وخيل وإبل.

أما الملك عبدالعزيز فوصل إلى مكان المعركة بعد خمسة أيام من وقوعها. وأقام في تُرَبة حوالي عشرة أيام يُدبِّر شؤونها.

ولقد استبد الذعر بالمسؤولين في الحجاز بعد معركة تُرَبة. وظَنُّوا أن الإخوان سيواصلون زحفهم إلى الطائف. فاتَّصلوا بالمعتمد البريطاني في جدة طالبين مساعدة حكومته، فأخبر هذه الحكومة بما جرى وما يخشاه أولئك المسؤولون. وحَذَّرت بريطانيا الملك عبدالعزيز من التقدم في اتِّجاه الطائف. بل طلبت منه أيضًا، أن ينسحب بقواته من تُرَبة حتى تتاح الفرصة لمفاوضات بينه وبين الملك حسين[٣]. ومراعاة للظروف المحيطة به قام الملك عبدالعزيز بالانسحاب بقواته من البلدة المذكورة، لكنه عَيَّن لها أميرًا من قِبَله[٤].

٢- من معركة تُرَبة إلى الزحف على الحجاز:

تَأَثَّر الملك حسين تَأَثُّرًا شديدًا نتيجة ما حدث في تُرَبة. ذلك أن سمعته بين أتباعه قد اهتزَّت، وأنه فقد كثيرًا مما لديه من قوات مُدرَّبة وأسلحة مُتطوِّرة وأموال ضخمة. فراح يتخذ مواقف مُتعنِّتة؛ منها قطع التعامل التجاري مع

---

(١) من أحسن من فصَّل تلك المعركة العبيِّد، الذي عمل فترة عند خالد بن لؤي في الخُرَمة. انظر تاريخه ص ص ٢١٢ - ٢١٤.

(٢) قدَّر العبيِّد عدد قتلى جيش الشريف بتسعة آلاف، وقتلى الإخوان بخمسين وثلاث مئة.

(٣) ابن هذلول، ص١٢١، وهيم، ص٣١٤.

(٤) ابن هذلول، ص١٢٢.

النجديين[١]، ومنعهم من دخول الحجاز لأداء الحج[٢]. وقد حاولت بريطانيا تهدئته، فَأمدَّته ببعض الطائرات، وطلبت من الملك عبدالعزيز أن ينسحب بقواته من تُربة على أَلَّا يقوم الحسين بأَيِّ اعتداء عليه، فاستجاب لطلبها -كما ذكر سابقًا- وسألته أن يُؤجِّل حج أتباعه ذلك العام، فلم يمانع[٣]. ومن الواضح أنه راعى أمورًا كثيرة في اتِّخاذه ذلك الموقف المرن؛ منها هيمنة بريطانيا على المنطقة حينذاك بدرجة كبيرة، بحيث تصعب معارضتها. ومنها أن مرونته ستجعل تلك الدولة أكثر ميلًا إليه وأَقلَّ اندفاعًا مع خصمه. ومن المحتمل جدًّا أنه قد أدرك بأنها لن تحرص كُلَّ الحرص على مساندة هذا الخصم بعد أن انتهت الحرب العظمى، وحَقَّقت ما تريده منه. ومن تلك الأمور أن الملك عبدالعزيز كان حينذاك بصدد معالجة قضايا مُلحَّة كقضية جبل شَمَّر وقضية عسير.

ومع أن بريطانيا نجحت في الوساطة بين الملك حسين والملك عبدالعزيز لتوقيع هدنة بينهما عام ١٣٣٨هـ[٤]. فإنها أخفقت في إقناع الأول بالسماح لأهل نجد بالحج هذا العام والعام الذي تلاه. وفي عام ١٣٤٠هـ رضي بذلك على أن يكون عددهم محدودًا، وأن يكونوا تحت قيادة أمير يستطيع منعهم من القيام بأَيِّ عمل يُعكِّر الأمن[٥].

على أن إنهاء الملك عبدالعزيز لإمارة آل رشيد في جبل شَمَّر، وما تلا ذلك من بسط نفوذه على ما يليه شمالًا من جزيرة العرب، عام ١٣٤٠هـ، وتوطيد حكمه في عسير في بداية العام التالي، ونشاط أتباعه حول الحدود مع العراق

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص٨٥.

(٢) السباعي، ج٢، ص٢٤٢.

(٣) ترولر، ص١٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٥) وهيم، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠؛ ويذكر أن عدد الذين أدَّوا الحج حوالي ١٨٠٠.

وشرق الأردن، أثارت مخاوف الملك حسين أكثر من ذي قبل، فراح يطالب بتَخلِّي الملك عبدالعزيز عن جبل شَمَّر وعسير، وعاد إلى منع أهل نجد من الحج[١]. ولما رأت بريطانيا أن العلاقات بين الملك عبدالعزيز وكُلٍّ من الملك حسين في الحجاز وابنيه فيصل وعبدالله في العراق والأردن مُتوتِّرة[٢] دعتهم إلى مؤتمر في الكويت للنظر في المشكلات القائمة بينهم. لكن الحسين أبى الحضور قبل أن ينسحب الملك عبدالعزيز من جميع المناطق التي لم تكن تحت حكمه قبل الحرب العالمية الأولى[٣]. وانعقد المؤتمر دون حضور مُمثِّل له. لكن المؤتمرين لم يصلوا إلى اتِّفاق؛ خاصة أن مُمثِّلي العراق والأردن تَعرَّضوا لأمور متصلة بالحجاز[٤]. وبفشل المؤتمر أصبحت الطريق ممهَّدة لدخول العلاقات بين الملك حسين والملك عبدالعزيز مرحلة حسم جديدة.

٣- اكتمال توحيد الحجاز:

من الأمور التي قام بها الملك حسين إثر انعقاد مؤتمر الكويت اتِّخاذ لقب خليفة المسلمين[٥]. وكان هذا مما أغضب الملك عبدالعزيز وشخصيات وجهات إسلامية؛ خاصة في مصر والهند[٦]. وقد سارع الملك عبدالعزيز إلى كتابة بيان أوضح فيه مآخذه على الملك حسين؛ مشيرًا إلى عدم أهليته لتَولِّي الخلافة، التي

---

(١) السباعي، ج٢، ص٢٤٢.

(٢) تولَّى فيصل عرش العراق سنة ١٣٣٩هـ، وأصبح عبدالله أميرًا لشرق الأردن في العام ذاته، الزركلي، ج١، ص٣٢٥.

(٣) الذكير، نسخة بغداد، ص٨٥؛ ترولر، ص٢٠٠.

(٤) الزركلي، ج١ ص٣٢٦؛ وهيم، ص ص ٣٤١ - ٣٤٢. وكان انعقاد الدورة الأولى من ذلك المؤتمر يوم التاسع من جمادى الأولى عام ١٣٤٢هـ. انظر ترولر، ص٢٠٦، موضي بنت منصور آل سعود، **الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت**، دار تهامة، ١٤٠٢هـ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) كان إعلان الخلافة له في عمَّان في ١٣٤٢/٦/٨هـ. الريحان، ص٣٢٤.

(٦) الزركلي، ج١، ص٣٢٦.

هي شأن عام لجميع المسلمين. ونشر ذلك البيان في عدة صحف عربية وهندية، فحظي بتعليقات مُؤيِّدة[١].

وفي الوقت نفسه تَوجَّه الملك عبدالعزيز إلى القصيم حيث عُيِّن عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي أميرًا على جبل شَمَّر، وربط به كُلًّا من القصيم وما يقع شمال ذلك الجبل[٢]؛ تمهيدًا لاتخاذ إجراءات عسكرية. ولَعلَّ مما شَجَّعه على التَّوجه إلى الحَلِّ العسكري أن بريطانيا قطعت المعونة الاقتصادية عنه بحيث لم يعد يخشى أن تستغل تلك المعونة سلاحًا ضده[٣]. ثم عاد إلى الرياض، فعقد مؤتمرًا في شهر ذي الحجة، عام ١٣٤٢هـ، ترأسه أبوه الإمام عبدالرحمن، وحضره العلماء وأمراء البلدان وقادة الإخوان ورؤساء القبائل. وافتتحه الإمام عبدالرحمن بالإشارة إلى تَذمُّر أهل البلاد من منعهم من الحج. ثم شرح الملك عبدالعزيز أبعاد الموقف، وتَوصَّل الجميع إلى وجوب أداء الحج سِلْمًا أو عن طريق القوة[٤].

وكان من الخطوات العسكرية التي اتَّخذها الملك عبدالعزيز أن أرسل فئة من أتباعه إلى الحدود مع العراق، وفئة أخرى إلى الحدود مع الأردن؛ استعدادًا لصَدِّ أي حركة من القطرين المذكورين[٥]. وبعث فئة ثالثة قوامها ثلاثة آلاف من الإخوان إلى الحجاز بقيادة سلطان بن بجاد وخالد بن لُؤَي، ومعهما رؤساء هجر آخرون من قبائل مختلفة[٦]. وقد اجتمعت القوة المتجهة إلى الحجاز في

---

(١) يوجد البيان والتعليقات عليه في تاريخ الذكير، نسخة بغداد، ص ص ٨٥ - ٩١.

(٢) الريحاني، ص٣٢٣ ومن المرجح أن ذلك الربط كان مؤقتًا.

(٣) ترولر، ص٢١٦.

(٤) الريحاني، ص ص ٣٢٦ - ٣٢٧؛ الزركلي، ج١، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٥) الذكير، نسخة بغداد، ص٩٢؛ ترولر، ص ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٦) الزركلي، ج١، ص٣٣٠.

تُرَبة. ثم انطلقت من هناك صوب الطائف حتى اقتربت منها فجأة في بداية شهر صفر عام ١٣٤٣هـ، فاكتسحت حصونها الأمامية، وانضمَّ إليها أعداد من أفراد القبائل المحيطة بها أملًا في الحصول على مكاسب مادية من خلال الحرب[١]. وكان في تلك البلدة قوة نظامية، فخرجت لصد المهاجمين، لكنها لم تَتمكَّن من ذلك، فتقهقرت، ورابطت شمال البلدة، وراحت تطلق نيران مدافعها ضدهم ثلاثة أيام. وفي ليلة السادس من ذلك الشهر وصل إلى الطائف الأمير علي بن الحسين بنجدة من الجند النظامي والهجانة. لكنه، فيما يبدو، لم يثق بمقدرته على مجابهة الإخوان، فانسحب عصر ذلك اليوم إلى الهَدَا[٢]. ونتيجة لهذا اضطرت القوة النظامية المدافعة عن البلدة إلى الانسحاب أيضًا، واللحاق به في معسكره بعد يوم من انسحابه[٣]. فاستبدَّ الذعر بالسكان، وفتح قسم منهم أبواب البلدة مظهرين أنهم يؤثرون السلامة[٤]. فاندفع إليها مئات من عامة الإخوان والملتحقين بهم من البدو المحيطين بها، وراحوا ينهبون ويقتلون من يقاومهم أو يَظنُّون أنه عقبة في سبيل ما يهدفون إليه[٥]. ولما علم القائدان خالد بن لُؤَي وسلطان بن بجاد بذلك هرعا إليها، وأوقفا تلك المأساة[٦]. وهكذا دخلت الطائف تحت حكم الملك عبدالعزيز.

---

(١) القاضي، ص٦٠، الذكير، نسخة بغداد، ص٩٠.

(٢) ورد اسم هذا الموضع «الهدة» في كتاب بلاد العرب للأصفهاني، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ، ص٣١. لكن بعض المصادر الحديثة، كالسباعي، أوردته كما رسم في المتن. وهذا هو المتداول عند الناس الآن.

(٣) الذكير، نسخة بغداد، ص٩١؛ السباعي، ج٢، ص٢٤٤.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ج٢، ص٢٤٥.

(٥) ضخمت جهات معيَّنة ما حدث في الطائف لأغراض خاصة. ومن المؤكد أنه لم يحدث قتل لنساء أو أطفال، ومن المرجح أيضًا، أنه لم يقتل من سالم من الرجال.

(٦) الذكير، نسخة بغداد، ص٩١؛ ابن هذلول؛ ص١٥٣.

وكان لما حدث في الطائف أثر سلبي كبير على معنويات قوات الملك حسين وأتباعه. ولهذا فإن إمداده ابنه عليًّا بكل ما استطاع من قوات ومعدَّات لم يرفع تلك المعنويات. فقد خرج الإخوان من الطائف، وهجموا على علي ومن معه ليلة السادس والعشرين من صفر، فهزموه هزيمة شديدة، واستولوا على ما كان معه من أسلحة وذخيرة، وفرَّ هو ومن نجا من أتباعه إلى مكة[1].

وبعد معركة الهدا تَوقَّف الإخوان منتظرين تعليمات الملك عبدالعزيز. أما أهل مكة فدَبَّ الخوف في نفوسهم، وفَرَّ كثير منهم إلى جدة. وذهبت أدراج الرياح كل الصيحات التي أطلقها الملك حسين لاستنهاض همم أتباعه أو الحصول على معونة خارجية مُؤثِّرة. وأمام هذا الوضع اجتمع وجهاء الحجاز في جدة، وقَرَّروا أن يَتخلَّى الحسين عن الملك لابنه علي[2]؛ أملًا في أن يُمهِّد ذلك الطريق أمام حَلٍّ سلمي مع الملك عبدالعزيز. ولم يجد الحسين وابنه علي بُدًّا من النزول عند رغبة أولئك الوجهاء. وبويع علي بالحكم في الخامس من ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ[3]. وفي العاشر من هذا الشهر وصل أبوه إلى جدة حيث بقي خمسة أيام، ثم غادرها بحرًا إلى العقبة[4]. أما الملك علي فإنه أدرك أن الموقف في مكة ميؤوس منه، فتركها قاصدًا جدة في الرابع عشر من الشهر المذكور. وخوفًا من أن تَدبَّ الفوضى في مكة، أو تجتاحها قوات الإخوان القريبة منها اجتياحًا، اتَّصل عدد ممن كانوا فيها بخالد بن لُؤَي، وطلبوا منه أن يدخلها بأمان[5]، فدخلها

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص٩١؛ الزركلي، ج١، ص٣٣٢.

(٢) الريحاني، ص٣٣٦؛ السباعي، ج٢، ص٢٤٦.

(٣) الريحاني، ص٣٤٠.

(٤) السباعي، ج٢، ص٢٥٣.

(٥) القاضي، ص٧١؛ الذكير، ص٩٣.

ومعه الإخوان جميعًا محرمين مُهلِّين مُكبِّرين دون إراقة دماء. وذلك في السابع عشر من ربيع الأول (١٥/١٠/١٩٢٤) [١]. وتَولَّى خالد مقاليد الأمور فيها[٢].

بعد أن أصبحت مكة في أيدي أتباع الملك عبدالعزيز تُلي خطاب منه مُوجَّه إلى أهل الحجاز، يوضِّح فيه مآخذه على حكامهم، والأسباب التي دعته إلى اتِّخاذ ما اتخذه من إجراءات، ويُؤكِّد لهم أنه سيعاملهم بالتي هي أحسن[٣]. وقد كتب كبارهم في جدة إلى قائده خالد بن لُؤَي يطلبون منه عقد هدنة بين الطرفين، فأجابهم بأنه يجب على الملك علي أن يقدم إليه، وأن أمر السلم والحرب من شأن الملك عبدالعزيز. فأرسلوا إلى خالد وفدًا للمفاهمة. أما الملك علي فأعلن تصميمه على المقاومة[٤]. وقد خَيَّر خالد أهل الحجاز بين أمرين: القبض على الملك علي، أو إخراجه من الحجاز. فإن كانوا لا يقدرون على ذلك فإنه مستعد لإمدادهم بقوة تُحقِّق لهم ما يختارون. فلم يَتَّفقوا على رأي[٥]. ولما علم الملك علي بما حدث كتب إلى الملك عبدالعزيز رسالة يبدي فيه رغبته في الصلح، لكن الملك عبدالعزيز لم يرض بديلًا عن تَخلِّي الملك علي عن الحكم[٦]. وفي أثناء ذلك تَلقَّى خالد ابن لُؤَي وسلطان بن بجاد رسائل من معتمدي الدول الأجنبية وقناصلها في جدة، يفيدون بأن دولهم تلتزم الحياد في النزاع في الحجاز ما دامت رعاياها في أمان[٧]. وتَوجَّه الملك عبدالعزيز بجيش كبير من الحاضرة

---

(١) الريحاني، ص٣٥١؛ السباعي، ج٢، ص٢٥٥.

(٢) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) انظر نصه في المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٥) ابن هذلول، ص١٦١.

(٦) السباعي، ج٢، ص ص ٢٦١ - ٢٦٤.

(٧) ابن هذلول، ص١٦٤.

والإخوان، فدخل الجميع مكة المكرمة معتمرين في الثاني من جمادى الأولى[١]. ولما قضى الملك عمرته أقبل عليه السكان يُرحِّبون به ويبايعونه، ووعدهم بإزالة المظالم، وتطبيق الشريعة، وتحقيق الأمن[٢].

وبقي الملك عبدالعزيز في مكة شهرًا حاولت خلاله جهات مختلفة أن تصلح بينه وبين الملك علي، لكنها لم تنجح[٣]. وبعد ذلك أمر أتباعه بالزحف إلى جدة. واجتمع أولئك الأتباع بقيادته في الوزيرية ثم الرغامة[٤]. وكان الملك علي قد أحاط جدة بما استطاع من وسائل الدفاع كالخنادق والأسلاك الشائكة. وبالإضافة إلى ذلك فقد وصلت إليه من أبيه وأخيه عبدالله إمدادات من الرجال والأسلحة والأموال، كما وصلت إليه طائرات ومدافع ومُصفَّحات[٥]. وظَلَّ الملك عبدالعزيز معسكرًا في الرَّغامة؛ مُشدِّدًا الحصار على جدة، ومتبادلًا الهجمات مع خصمه من وقت إلى آخر[٦]. ولم يحاول أن يقتحم تلك البلدة، لأنه كان يدرك حجم الخسائر التي قد تنجم عن الاقتحام، ويخشى حدوث خطر على مُمثِّلي الدول الأجنبية هناك فتقف ضده. وتوالت الإمدادات إليه من داخل البلاد، فازداد موقفه العسكري تَحسُّنًا يومًا بعد آخر.

على أن الملك عبدالعزيز لم يقصر نشاطه على جبهة جدة. بل بعث سرايا من جيشه إلى جهات مُتعدِّدة في الحجاز. وكان أمير اللَّيث والقنفدة قد دخل في طاعته سلمًا بعد دخول أتباعه مكة[٧]. ثم نجح من بعثهم إلى رابغ في إدخالها

---

(١) السباعي، ج٢، ص٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٥.

(٣) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ١٠٢ - ١٠٣؛ ابن هذلول، ص ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) الزركلي، ج١، ص٣٤٤.

(٥) الذكير، نسخة بغداد، ص١٠٥.

(٦) المصدر نفسه، وفيه تفصيل جيد عن ذلك، ص ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٨.

تحت حكمه. وكان هذا وذاك من المكاسب العظيمة له. ذلك أنه تَمكَّن من الإعلان بأن السبل إلى مكة مُيسَّرة آمنة عن طريق هذه الموانئ[١]. وفي آخر ذي القعدة تَوجَّه من معسكره إلى مكة لأداء الحج. وقدم إلى هذه البلاد آلاف كثيرة من داخل البلاد لتأدية حجهم، كما وصلت إليها أعداد لا بأس بها من الخارج عبر الموانئ التي دخلت تحت طاعته للقيام بالركن الخامس من أركان الإسلام. وأَدَّى الجميع الحج بأمان واطمئنان[٢]. فكان لهذا أثره الطيِّب معنويًّا واقتصاديًّا.

ولقد حاول الملك علي استغلال فرصة ذهاب الملك عبدالعزيز إلى مكة، فهاجم معسكر السعوديين. لكنه رُدَّ على أعقابه[٣]. وكان قد وصل إلى مكة الزعيم القحطاني، فيصل بن حشر، ومعه أكثر من ألف رجل من أتباعه، فأمرهم الملك عبدالعزيز أن يَتَّجهوا - بعد قضاء عمرتهم - إلى معسكره قرب جدة لمساعدة من فيه من جيشه. ووصل ذلك الزعيم بمن معه إلى هناك، دون أن يعلم أتباع الملك علي بوصوله. فاقترح خطة دفاعية جَيِّدة، ووافق القادة الآخرون عليها. ونتج عن ذلك إبادة أكثر من هاجم السعوديين من أتباع الملك علي[٤].

وفي غضون ذلك أرسل الملك عبدالعزيز إلى الجهات الشمالية والشمالية الغربية من الحجاز عدة سرايا. ومن أولى تلك السرايا سَريَّة بقيادة عمر بن رُبَيْعان انطلقت إلى جهة ينبع لتأديب بعض القبائل، التي اعتدت على القوافل القادمة من هناك[٥]. ومنها تلك التي بقيادة سعود بن عبدالعزيز (سعود الكبير) ومعظم جنودها من أهل القصيم[٦]. وكان الملك قد أمر عبدالعزيز بن مساعد أن يبعث

(١) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٢) القاضي، ص٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٤.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
(٥) الذكير، نسخة بغداد، ص١٠٧.
(٦) القاضي، ص٦٣.

قوات لمهاجمة بلدة العَقَبة، التي كان الحسين بن علي يوالي نشاطه المعادي له منها. ولما رأى البريطانيون اقتراب تلك القوات من هذه البلدة طلبوا من الملك عبدالعزيز أن يمنعها من مهاجمتها على أن يبعدوا الحسين عنها. فتَمَّ هذا وذاك[١].

وكانت أول سَريَّة وجهها الملك عبدالعزيز إلى المدينة المنوَّرة تلك التي بقيادة صالح بن عَذْل[٢]. ثم وَجَّه إليها سَريَّة أخرى بقيادة إبراهيم النَّشْمي[٣]. وبعد انقضاء موسم الحج بعث إلى جهاتها كُلًّا من فيصل الدويش وعبدالمحسن الفِرْم بأتباعهما[٤]. واستقر المقام أخيرًا بالأوَّل منهما في العوالي. ومع أن المدينة أصبحت محاصرة فقد وصلت إليها أسلحة وأطعمة من الأردن. وكان ذلك مما شَجَّع حاميتها على الخروج منها ومهاجمة المحاصرين لها، لكنها تَكبَّدت خسائر فادحة، فعادت إليها[٥].

وبعد أن أقام الدويش ومن معه فترة في العوالي ارتحل صوب نجد في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٤٤هـ[٦]. وبقي أتباع الملك عبدالعزيز الآخرون

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص١١٣. وقد أُبعد الحسين إلى قبرص حيث توفي هناك عام ١٩٣١م. ثم نُقِل جثمانه إلى القدس، فدُفِن بها، السباعي، ج٢، ص٢٥٤.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٠.

(٤) القاضي، ص٦٤، ويفهم من كلام الذكير (نسخة بغداد، ص١١٧) أن الدويش كان موجَّهًا للالتحاق بقوة سعود الكبير، لكنه ذهب إلى العوالي باتفاق مع أهلها. بل إن العبيِّد (ص٢٤١) ينقل عن إمام الدويش حينذاك، محمد العجاجي، أن هذا الزعيم قد أرسِل مددًا لسعود المحاصر لينبع، لكنه توجه إلى المدينة بدلًا من ذلك.

(٥) القاضي، ص٦٥، الذكير، نسخة بغداد، ص١١٨.

(٦) القاضي، ص٦٦، ويعلِّل هذا المؤلف ارتحاله بأنه قد حلَّ في أتباعه وباء، فاستأذن عبدالعزيز في الرحيل، فأذن له.
أما الذكير (نسخة بغداد، ص١٢٥) فيقول: إن ارتحاله كأن بأمر من الملك عبدالعزيز طمأنة لأهل المدينة الذين أبدوا الرغبة في إنهاء الحرب، لكنهم كانوا خائفين من الدويش. على أن هذا المؤلف أشار في النسخة الخاصة (ص١١٦) إلى انتشار الوباء في أتباعه واستئذانه الملك في الرحيل.
ويذكر ابن ناصر (ص١٤٦) أن الدويش قد أُمر بأن لا ينال المدينة بسوء، لكنه لما وصل إلى ضواحيها أغار عليها، فأصاب الله قومه بالوباء، فارتحل عنها.
وتقرب رواية العبيِّد (ص٢٤٢) من روايتي القاضي وابن ناصر.

محاصرين للمدينة، فندرت فيها الأطعمة، وغادرها أعداد كبيرة من أهلها. ثم أدرك بعض كبارها أن من الأفضل الدخول في طاعة الملك، فأرسلوا إليه مندوبًا يطلبون إرسال أحد أبنائه ليُسلِّموا له. فبعث إليها ابنه محمدًا. لكنه لما وصل إلى مشارفها وجد أن من كان في أيديهم الأمر يأبون التسليم[1]. فأقام محاصرًا لها. ولما اشتد الحصار على من فيها خرج وفد منهم لمفاوضته على التسليم. واتَّفق الطرفان على أن يُؤمِّنهم الأمير على دمائهم وأموالهم، ويُسلِّموه جميع ما للحكومة من أموال وأسلحة وغيرهما. وكان ذلك في الثامن عشر من جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ/٣/١٢/١٩٢٥م. ودخلها ذلك الأمير في اليوم التالي[2].

وكان لخروج المدينة المنوَّرة من يد الملك علي أثر سلبي كبير على معنوياته ومعنويات أتباعه. ذلك أن حاميتها كانت تملك أسلحة ومعدَّات حربية كبيرة. وكان ذلك الخروج كسبًا عظيمًا للملك عبدالعزيز سياسيًّا وعسكريًّا. وبينما كانت النكسات تتوالى على الأوَّل كان موقف الثاني يزداد قوة يومًا بعد آخر. وكانت الإمدادات تصل إليه تباعًا من أرجاء البلاد التابعة له. ومن ذلك وصول قوة بقيادة ابنه فيصل[3]. وازداد موقف المحاصَرين داخل جدة حرجًا لقلَّة الأطعمة ومياه الشرب والذخيرة والأموال، فدَبَّ اليأس في نفوسهم. وكان الملك عبدالعزيز على علم بما يحدث داخل تلك البلدة، فأعلن العفو العام عمن يغادرها إلى مكة أو أي مكان آخر. وكان هذا وذاك مما شَجَّع بعضًا من أهلها؛ بل ومن قواتها النظامية وكبار موظفيها، على مغادرتها[4]. وأمام هذا الوضع

(١) القاضي، ص٦٦؛ الذكير، نسخة بغداد ص١٢٥.

(٢) القاضي، ص٦٦؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) القاضي، ص٦٧.

(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص١٢٧. وقد ذكر أن ممن غادروها ٣٠٠ جندي من سوريا وفلسطين، وتحسين باشا القائد العام للجند، وعبدالله باشا رئيس وزارة جدة، ومحمد علي كاتب الملك الخاص، وأحمد السقاف رئيس الديوان.

المُتردِّي أدرك الملك علي أنه لا بد من مفاوضة الملك عبدالعزيز حول تسليم البلاد إليه. فاتّصل بالمعتمد البريطاني في التاسع والعشرين من جمادى الأولى، عام ١٣٤٤هـ، وطلب منه أن يَتوسَّط في الأمر؛ مبديًا شروطه لذلك التسليم. فخرج المعتمد إلى الملك عبدالعزيز، وأطلعه عليها. وبعد إدخال تعديلات طفيفة عليها قبلها وأمضاها في أول يوم من جمادى الآخرة. ثم أمضاها الملك علي مساء ذلك اليوم. وأهم تلك الشروط:

١-يتنازل الملك علي عن ملك الحجاز، ويرحل عنها بممتلكاته الشخصية فقط، ويُسلَّم للملك عبدالعزيز كل ما هو ملك لحكومة الحجاز من أسلحة ومُعدَّات وبواخر ومنشآت وأموال.

٢- يضمن الملك عبدالعزيز سلامة الموظفين والعسكريين والأشراف والأهالي والقبائل، ويمنحهم العفو العام، ويَتعهَّد بترحيل العسكريين الذين يرغبون الرحيل إلى أوطانهم[١].

وبذلك انتهى حكم الأشراف للحجاز، وتَوحَّدت هذه المنطقة مع ما وَحَّده الملك عبدالعزيز من مناطق البلاد. وغادر علي بن الحسين جدّة في السادس من جمادى الآخرة[٢] سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥/١٢/٢١م. ثم دخلها الملك عبدالعزيز، وعامل من فيها معاملة حسنة.

٤- مقارنة بين توحيد الحجاز في الدولتين السعوديتين الأولى والثالثة:

هنالك وجوه شبه في موقف حكام الحجاز من الدولة السعودية الأولى وموقفهم من الدولة السعودية الثالثة[٣]، والظروف التي ساهمت في توحيد قادة

(١) القاضي، ص٦٨؛ الريحاني، ص ص ٤٢٤ - ٤٢٥؛ السباعي، ج٢، ص ص ٢٦٨ - ٢٧١.
(٢) الزركلي، ج١، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨.
(٣) من المعروف أن الدولة السعودية الثانية لم توحِّد الحجاز مع ما وحَّدته من مناطق.

هاتين الدولتين لتلك المنطقة. فقد كانت علاقات أولئك الحكام بالدولة السعودية الأولى عدائية بصفة عامة. من ذلك أنهم منعوا أتباعها من أداء الحج حوالي نصف قرن[1]، وبدأوها بالحرب. ولم يكن موقف الشريف حسين بن علي (الملك حسين) من الدولة السعودية الثالثة وُدِّيًّا في غالب الأوقات. فقد بدأ بغزو أراضيها، ومنع أتباعها من أداء الحج سنوات قليلة.

وكان من الأمور التي ساهمت في توحيد الدولة السعودية الأولى للحجاز انتشار مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، التي قامت على أساسها تلك الدولة، بين قبائل كانت تابعة للشريف غالب حاكم الحجاز. ومنها اختلاف هذا الحاكم مع صهره وأحد المقربين إليه، عثمان المضايفي، وانضمام هذا الأخير إلى السعوديين، ثم مساهمته في عملياتهم العسكرية الموجهة إلى الحجاز. ومنها دخول منطقة عسير تحت راية الدولة السعودية الأولى، بحيث أصبحت الحجاز محاطة من أكثر جهاتها بمناطق سعودية. ومنها عدم قدرة الدولة العثمانية، التي كان يتبعها الشريف غالب رَسميًّا، على مساعدته.

وكان من الأمور التي ساهمت في توحيد الملك عبدالعزيز، مؤسس الدولة السعودية الثالثة، للحجاز انتشار الوهج الديني لحركة الإخوان؛ خاصة في واحتي الخُرَمة وتُرَبة، اللتين كانتا تابعتين رسميًّا للشريف حسين بن علي (الملك حسين). ومنها اختلاف هذا الشريف مع خالد بن لُؤَي، قريبه نَسَبًا وأمير الخُرَمة، وانضمامه إلى الملك عبدالعزيز، ثم مساهمته في العمليات السعودية العسكرية الموجهة إلى الحجاز. ومنها دخول منطقة عسير تحت حكم الملك عبدالعزيز بحيث أصبحت الحجاز محاطة من الشرق والجنوب بمناطق

(١) استمر منع الأشراف لأولئك الأتباع من قيام الدولة السعودية الأولى تقريبًا إلى عام ١٢١٣هـ؛ باستثناء عامي ١١٨٥هـ و١١٩٧هـ.

سعودية. ومنها عدم وقوف بريطانيا مع الملك حسين في ساعته الحرجة؛ وهي التي ساعدته في فترة من الفترات لمصالحها الخاصة، ثم رأت عدم الوقوف معه تَمشِّيًا مع الأمور المستجدة.

*****